ابو العلاء واقطاب الفكر المحدثون

ايها الحفل الكريم ،

يسرني قبل البدء بالكلمة التي أعددتها لهذا المهرجان ان أذكر حضرتكم وحضرة الآنسة الموصلي ان عدو المرأة في الوقت الحاضر هو توفيق الحكيم وان الدكتور طه حسين بك والدكتور مهدي البصير والداعي المائل أمامكم من عشاق المرأة وأنصارها . المؤمنين بجليل قدرها وخطير شأنها في حياة الافراد والشعوب ، وأن لنا أزواجاً واولاداً من اجلهم نحيا لا من اجل أنفسنا فعفواً أيتها الآنسة الفاضلة واغفري ذنب أبي العلاء الذي يكفيه جزاء ان حرم عطف المرأة وخانها. تلك المرأة التي قال الله عنها في كتابه العزيز = « ومن آياته أن خلق لكم من انفسكم ازواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة . الآية . . »

وبعد انتقص قدر أبي العلاء بعض مواطنيّ اللبنانيين بغية النيل من الثقافة العربية وتقديس الثقافة الغربية الحديثة فعز عليّ وانا المدافع بحكم حرفتي على المجرمين أحياناً ان لا ادرأ الظلم عن أمة لم يعرف التاريخ بين الغزاة من هو ارحم منها ، وعمن يُمثل ثقافتها أحسن تمثيل ، لا سيما أن بيني وبينه رابطة العاهة .

وقد رأيت خير سبيل للرد على مواطنيّ المصابين بهوس الاستغراب ولاظهار الحق أن أقارن بين المعري والمفكرين الغربيين المحدثين جملة وأن أختار موضوعاً لهذه المقارنة الخاطفة اسمى مالدى الانسان من مميزات — العقل والقلب .

يفتخر العلماء الغربيون بالاعصر الحديثة افتخاراً عظيما ويدعونها بأزمنة النور لاستعادة العقل فيها سلطانه المسلوب وبسط نفوذه على المذاهب والآراء والمعتقدات كافة .

بيد أننا لو أجلنا الفكر في تلك الازمنة المضيئة لتبينا أن ضياءها كان في أكثر الاحيان كسماء البلاد التي انبثق فيها مشوهاً غير خالص النقاوة والصفاء وسر ذلك أمور أخصها وأعمها معاً هو أن فريقاً من أئمة المفكرين الذين أوجدوا ذلك الضياء

لم يعترفوا بحقوق العقل الطبيعية ولم يتركوه حراً طليقاً يستشف الحقائق من وراء الحجب والاصداف التي نسجتها الاعصر المظلمة بسخافاتها وأهوائها المزمنة المتراكمة .

فالفيلسوف الفرنسي الامام « ديكارت » مثلا بالرغم من تمجيده العقل تمجيداً عظيماً وتوجيهه الفكر الحديث نحو التنظيم لم يعلن سيطرة العقل على المعارف كلها بل استثنى منها كل ما تعلق بالكنيسة وتعاليمها ، وقال بوجوب الأخذ بتلك التعاليم كما هي دون ما نقد ولا تمحيص .

وإذا ذكرنا ما كان للكنيسة في عصر «ديكارت» من اثر بين في صميم الحياة الغربية الخاصة والعامة ادركنا دون عناء مدى الافق البعيد الذي اعتبره أمام العقليين المحدثين حراما وحذر العقل أن يضيئه بشعاعه .

وإذا انتقلنا من «ديكارت» الى «بسكال» وجدنا عند هذا المفكر المشهور ما يدهش من لا يدهش ، ذلك أنه بعد أن نهج في الشطر الاول من حياته ازاء العقل نهج «ديكارت» لم يلبث أن رجع في الشطر الثاني منها عن هذا المنهج وانطلق — على أثر حادث عربة جرت له فنجا منها كما يقولون — ينتقد العقل إنتقاداً شديداً — ويدعو إلى تمجيد الكنيسة واعتبارها وحدها — ام الحقائق .

وفضلا عما تقدم ان أكثر هؤلاء المفكرين وإن اعترفوا في القرن الثامن عشر وما يليه بسلطان العقل فانهم لم يتجردوا في اغلب الاحيان عما انطبع أو اشتد في أنفسهم وأذهانهم من أهواء ومعتقدات .

وحسبي أن أذكر حضرتكم أن المفكر الاجتماعي العظيم « مونتسكيو » على الرغم من وجوده في عصر كله تحرر وانطلاق من سلاسل الماضي واغلال العهد الاقطاعي فانه لم يتجرد عن هواه الطبعي الموروث بل طالب بالمحافظة على امتيازات النبلاء وان المؤرخ الاشهر «ميشيله» لم يتجرد عن هواه الحزبي فشوه عامداً متعمداً وجه تاريخ امته تشفيا من الملكية والملكيين . وان أكثر المستشرقين والمستعربين لايتجردون عن شعوبيتهم ضد العرب والاسلام فيشوهون الحقائق ويحرفونها عن مواضعها تحريفاً لبقاحيناً وحيناً وقاطعاً منهم في هدم ايماننا بماضينا وأملا بان يتبع ذلك انهدام ثقتنا بمستقبلنا فنبقى بلا أمل ولاطموح وتبقى للغرب الغلبة علينا أبد الدهر .

اما أبو العلاء خير من يمثل الفكر والثقافة العربيين وان جارى العاطفة حين لها أو الفى نفسه امام المعضلات الفلسفية الكبرى التي لم يطق حلها والتي لايستطيع العقل الانساني استكناه اسرارها فانه لم يتهيب مبدئيا حرمة الماضي ولا قداسة تراث الاباء فاعمل فيها العقل غير هياب ولا متحفظ كما اعمله في كل شيء لاقتناعه ان العقل سبيل المعرفة العلمية الاوحد .

كذب الظن لاامام سوى العقـــــل مشيراً في صبحه والمساء

وواضح ان هذا البيت المشهور الرائع في لفظه ومعناه ليس من شوارد الخيال أو فلتات اللسان عند المعري ولكنه في رأيه اعلان حقوق العقل وان شئتم تعبيراً احدث فقولوا انه ميثاق المعرة بل بيان حكيمها الفكري اذاعه على المفكرين من الف عام وكان من اول من تقيد به في كل موضوع تناوله بالبحث لم يفرق بين ان يكون الموضوع دينياً أو غير دينى اسلامياً أو غير اسلامي عربياً أو غير عربي .

ولا شك ان بحث هذه الموضوعات وما اليها بالعقل المتجرد عن الميل والهوى ليس بالشيء اليسير حتى عندصفوة العلماء والمفكرين مثل « ميشله » و « مونتسكيو » كما اسلفنا بل هو من اصعب الامور واشقها على النفس لما يستلزم ذلك من انكار ماانغرس او اشتد فيها من اهواء ومعتقدات امتزجت بالنفس امتزاجاً تاما واصبحت مع الزمن جزءاً من اجزائها بل كيانها المعنوي حتى اننا لنفكر باهوائنا ومعتقداتنا واوهامنا اكثر مما نفكر بالعقل .

ولولا أن أبا العلاء من احدّ الناس ذكاء واثقبهم فكرا وارجحهم عقلا واشدهم انقطاعا عن اسباب الدنيا لما استطاع بلا ريب انيبحث كل موضوع عالجه بالعقل ولا ان يبلغ تفكيره ذروة التحرر والانعتاق حتى اتت آراؤه رغم مابينها من تناقض احياناً حقائق نقية صافية لايشوبها قصر نظر « ديكارت » ولا هوى « مونتسكيو » ومن نحا نحوهما في البحث والتفكير .

بيد أن تفوق أبي العلاء على اكثر المفكرين الغربيين المحدثين لم ينحصر في الناحية العقلية النظرية البحت بل تعدى ذلك الى الناحية الخلقية العملية أيضاً .

فبينا نرى الاديب والمصلح الفرنسي الاشهر « فولتير » مثلاينفق القسم الاكبر من اوقاته في تملق الملوك والامراء وذوي الوجاهة والثراء فيحوك معهم أو ضدهم

مختلف الشباك نبيلها وحسيسها لجلب الدنيا حلالا أو حراماً ، وبينا نري الفيلسوف الانكليزي الامام« بيكون »بالرغم من ثروته الطائلة وجاهه العريض ومنصبه السامي في الدولة يأكل اموال الناس بالباطل فيحكم عليه بالزج في غيابة السجن اعواما ، وبينا نرى الفيلسوف الالماني الشهير « لايبنتز » يوغر صدر المليك الغازي لويس الرابع عشر على الشرق ويقدم له مشروعاً خطياً منطوياً على افناء الملايين من الشرقيين لالجرم ارتكبوه بل لمجرد انهم مسلمون أي أن لهم في عبادة الخالق مذهباً غير مذهبه ، وبينا نرى طائفة من المستشرقين يتخذون العلم اداة للفتح والاسترقاق ويعتبرون الامم والشعوب المستضعفة اقنانا لمجتمعاتهم وعبيداً كما كان اباؤهم الاقطاعيون يعتبرون تلك المجتمعات ذاتها اقنانا وعبيداً .

بينا نرى كل هذا واكثر من هذا عند فريق من مصابيح ازمنة النور اذا بمفكرنا العربي المجتد والمنشأ أبي العلاء يرفق بالطير والانسان والنحل والحيوان على حد سواء واذا به يأبى التكسب بالشعر مخافة أن يغتصب بواسطة الحكام والامراء الممدوحين مال الشعب والفقراء . واذا به يعتبر البشر قاطبة سواسية لافرق عنده كما قال بين هاشمي وآل بربر ولا بين الامام علي كرم الله وجهه ومولاه قنبر ، واذا به يتعالى عن الدنيا ويأبى الا ان يعيش على هامش الحياة مكتفياً منها بما لايكاد يقيم اوده .

واذا قيل أن أبا العلاء لم يترفع عن الدنيا الا بسبب العاهة التي اطفأت النور من عينيه وغمرته منذ الطفولة بالظلمة الدائمة فاني اذكر حضرتكم ان تلك العاهة ذاتها لم تمنع الدكتور طه حسين بك ولا الدكتور مهدي البصير ولا بشار بن برد ولا الشيخ سليمان الفاروقي ولا الماثل امامكم عن طلب الدنيا واستمراء مابث لنا الله فيها من نعمة كما ان وجود الضياء في عيني « كانت » و « سبينوزا » لم يمنع هذين الفيلسوفين العظيمين عن التزام حياة العزلة والتقشف حتى ان « سبينوزا » وهو اليهودي النجار لم يقبل اكثر الهدايا والمرتبات التي عرضت عليه من الامراء والاغنياء بل أبى الا أن يعتاش من مهنته اليدوية الشاقة وهي صنع زجاج النظارات .

ولا ريب ان هذه الامثلة وما اليها تثبت بصورة لاتحتمل الجدل ان العمي ليس

في حد ذاته سر الاعراض عن متع الحياة وان سلامة البصر ليست في حد ذاتها سر الاقبال عليها .

اما الوقار الذي يعتبره الاستاذ العقاد سر التقشف عند أبي العلاء وان حال بلا ريب دون التهتك والاستهتار فانه لايحول ابداً دون اللذائذ والمسرات التي يبيحها العرف وتقرها الشرائع والانظمة .

فاعراض أبي العلاء عن متع الحياة ليس اذاً صدى عاهته المشهورة كما يتوهم بعض المفكرين ولا نتيجة وقاره المعروف كما يعتقد الاستاذ العقاد ولكنه منبعث عن اسباب وعوامل وان عزت معرفتها معرفة دقيقة لتعلقها باختلاجاته النفسية الداخلية فان اهمها على مايظهر لي ، مزاجه الخاص ثم ماشهد من عسف يرافق الحياة ويتغلغل في صميم مظاهرها المختلفة .

تغني أيام أبي العلاء كاعب من الكواعب كام كلثوم في زماننا مثلا ساعة أو بضع ساعات فتجبى الف دينار ، إن لم أقل أكثر ، فوق ما تجبى من نشوة الزهو والاعجاب ويشتغل عامل من العمال أو فلاح من الفلاحين الدهر كله فلا ينال لقاء أعماله المرهقة العائدة على المجتمع بالنفع العميم والخير العظيم ما تجبى تلك المغنية في حفلة واحدة . ولنقل مثل ذلك عن تاجر يبرم عقداً من عقود البيع او الشراء فيكسب من المال في دقائق مالا يكسبه الف قطب من أقطاب الفكر والادب أنفقوا أعمارهم في خدمة العلم والانسان .

هذه هي الحياة في عصر أبي العلاء وهكذا كانت في كل عصر من العصور وفي كل مجتمع من المجتمعات وهكذا ستكون مادامت على الارض حياة وما دام فوقها بشر يختلفون مواهب وحظوظاً .

وبين أن حياة كهذه قوامها الظلم وفلسفتها أبداً الاخلال بالتوازن بين ماللمرء وما عليه ، بين ما يعطي وما يأخذ ، مايستحق وما ينال ، ليست مما يغري حكيماً كأبي العلاء حرم على نفسه اللحم والعسل مخافة أن يعتدي على ما للنحل والحيوان وامتنع عن الزواج مخافة أن يجني على نفس بشرية بشقاء الوجود .

إن حب الحقيقة دعا أبا العلاء الى إنكار مالم يوافق من المذاهب والآراء والمعتقدات

عقله فلا عجب ان يدعوه مزاجه الحساس النبيل وحبه العدل الى ترك مالم يرض من اللذائذ والمسرات وجدانه .

وعلى كل حال وأيا كان السبب الذي أهاب بحكيم المعرة الى التزام حياة العزلة والتقشف فمما لا يقبل الجدل ان أبا العلاء قطب من أقطاب الفكر والفضل والادب وركن من أركان الثقافة والعدل والرحمة وانه إذا جاز للغربيين ولبعض مواطني اللبنانيين المصابين بهوس الاستغراب أن يفخروا بالاعصر الحديثة ويدعوها بارمنة النور فان من حقنا أن نمجد أبا العلاء وأن ندعو مفكرنا العربي الاعمى بالضياء بل بالشمس طلعت في معرة النعمان فاضاءت الشرق والغرب باشعتها النقية الخالدة خلود الفكر .

عارف العارف

مندوب الحكومة اللبنانية